حول «العامية»

الفعل الرباعي

أصلهُ ونشوءُهُ ومعانيهِ

لانيسي فريحه
دكتور في الفلسفة من جامعة شيكاغو

درس «العامية» درساً عليًّا غريباً عنا، وذلك لان نظرنا الى العامية يختلف تماماً عن نظر الغرب ولذا بقي درس اللهجات العربية العامية من اختصاص المستشرقين على الغالب. واظن ان السبب في ذلك هو اختلاف في وجهة النظر. فالعربي، حتى من اقدم العصور الاسلامية، يعتقد ان اللغة العربية الفصحى كانت يوماً لغة التخاطب كما انها كانت لغة الشعر والادب. ثم ان العرب عند خروجهم من الجزيرة واختلاطهم بمن جاورهم من الفرس وباقي الامم «فسدت ملكتهم» وداخلت لغتهم العجمة [1] وانت ترى هذا الاعتقاد سائداً جميع الذين كتبوا قديماً وحديثاً في اللغة العربية وتاريخها. ولكن علماء الغرب المستشرقين يعتقدون، وهم في اعتقادهم على صواب، ان اللهجات العربية كانت عديدة وان الفصحى كانت لغة الشعر والادب، وربما كانت لغة بعض الخاصة في المجتمعات الادبية، واما عامة الناس فكانت تتكلم لهجات تختلف باختلاف الامصار والاحوال الشخصية. ويعتقدون ايضاً ان كثيراً من ظواهر العامية تعود بتاريخها الى اعصر قديمة حتى قبل ظهور الاسلام، ثم انهم يعتبرون ان اللغة المحكية هي اللغة الحية الحقيقية. ولذا تراهم ابداً يفتشون عن خفايا العامية لعلهم يتوصلون الى حل كثير من المشكلات التي تعترضهم في درس الفصحى

ان الغرض من هذه المقالة البحث في ظاهرة لغوية لا اعتقد انها استرعت نظر الباحثين اللغويين، اعني كثرة الافعال الرباعية العامية في اللهجات العربية المحكية. وسأحاول ان أبين كيف يلتي درس العامية كثيراً من النور على طائفة من المسائل اللغوية الغامضة. وقبل التعمق في

(١) عند ما يراجع الباحث ما قيل في مسألة وضع النحو، او عند ما يراجع تاريخ النحو والنحويين يرى هذا الاعتقاد مكرراً معاداً. فيقول ان اللغة فسدت في زمن على وعلماء اللغة لا يرتاحون الى مثل هذه النظريات التي تقول بنشوء لهجات في بضع سنوات. فوراء الظواهر اللغوية اجيال واجيال

البحث لا بد ان نشذر الى القارىء اذا اكتفينا باليسير من الامثلة خوفاً من ان يكون بعض الامثلة مجهولاً عنده ، ولكنا نقصد توجيه نظر القارىء الى كثرة الاوزان الرباعية في لغتنا الخاصة اذ لا شك عندنا انهُ بعد قراءة هذه المقالة يتبادر الى ذهنه عشرات من الامثلة التي لم يخطر اليها قبلاً

﴿ الجذور ﴾ الكلمات في جميع اللغات السامية ترد الى جذور . ويمكن تقسيم هذه الجذور الى قسمين ، الاول ، وهو القسم الاكبر ، يشمل الكلمات التي جذورها تتضمن فكرة اصلية لا تتعداها ، وهذه الفكرة صفة ملازمة لمجموعة الحروف التي تؤلف ذلك الجذر . خذ مثلاً قتال ، قتيل ، اقتتل ، استقتل ، فانها جميعها ترد الى جذر يتضمن فكرة اصلية هي القتل وهذه الفكرة صفة ملازمة لهذه الحروف في هذا الترتيب الخاص . والقسم الثاني يشمل الكلمات التي لا يمكن ان تردّ الى جذر يتضمن فكرة اصلية محدّدة معينة ، بل تتألف من عناصر اولية من شأنها الدلالة والاشارة ، وهذه عريقة في القدم ، ويقع تحت القسم الثاني الضمائر والموصولات والاشارة وبعض الادوات[1] الروابط . مثال ذلك الضمير « أنتَ » فانها تتألف من عنصرين الأول « أن » وهو عنصر اشاري كما هو في كثير من اللغات السامية والثاني « تَ » وهي الاصل في الكلمة وفكرة الضمير للمخاطب متضمن فيها فتقول ضربتَ وتضرب فان التاء في آخر الماضي وأول المضارع هي الضمير . ومن الغريب ان التاء تفيد معنى ضمير المخاطب في كثير من اللغات الآرية ايضاً . فالالماني يقول du والفرنسي tu والانكليزي thou . خذ مثلاً آخر « هذا » . فالكلمة هذه لا ترَدُّ الى جذر معين بل تتألف ايضاً من عنصرين ، الهاء للتنبيه ، وذا للاشارة . وقلنا ان هذه العناصر الاولية الاشارية هي ربما كانت من أقدم المقاطع التي استخدمها الانسان للاشارة والدلالة والتنبيه

من ميزات اللغات السامية ان كثرة الجذور فيها ثلاثية . وهذه الميزة شغلت بال المستشرقين كثيراً ولهم في أصلها نظريات عديدة . وهذه الوتيرة الواحدة كانت الباعث على استنتاجات كثيرة عن عقلية السامي ونفسيته ، بعضها يقبلها المنطق وكثير منها نتيجة تخيّل وتخمين . ولكن هنالك فئة لا يستهان بها من الكلمات في العربية كما في باقي اللغات السامية ترد الى جذور ثنائية مثل يد أخ أب شفة الخ فان هذه وان ظهر فيها حرف ثالث احياناً كما في شفهي او شفوي يدوي اخوان الخ فهي ثنائية في الاصل وهذا الحرف الثالث ليس الا محاولة لجعلها ثلاثية لتلائم وباقي الكلمات فكان الثلاثية هي المثل في عدد الحروف[2]

---

(١) قلنا بعض الحروف لان بعضها لا يقع تحت هذا القسم فان حرف الجر على يرد الى الجذر «علا» اوضع يرجع الى الجذر « عم » وهي في السريانية والعبرانية « عم » وليس مع . والجذر عم يفسر لنا معنى مع

(٢) راجع Th. Nöldeke, Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, p. 109 –178; ibid. Beiträge p. 69—72.

والمسألة التي يهمنا امرها الآن هي هل الثلاثية (Triliteralism) اصلية ام تمثل طوراً حديثاً ؟ يظهر من درس الجذور السامية ان الثلاثية نتيجة تطور من الثنائية وزيادة الحرف الثالث كان لزيادة في المعنى . فان كثيراً من الافعال الثلاثية يمكن جمعها الى طوائف يكون المعنى في كل منها واحداً وهذا المعنى مضمن في اول حرفين مثلاً قطع قطب قطم قط والسامي قطش فانها كلها تفيد معنىً واحداً هو معنى قط . وقل هذا في فلّ فلح فلج فلع فلق فلا ؛ وهكذا في حمّ وحمي وحما وحمر وحمس وحمق فالجذر فيها « حم » وهو مشترك في جميع اللغات السامية ويفيد معنى الحرارة

ولكن لا يجب ان نعتقد ان الشعوب السامية كانت يوماً ما تتكلم بكلمات جميعها ثنائية ثم انتقلت الى طور آخر اصبحت فيه تتكلم بكلمات ثلاثية ، كلا ، ان النشوء اللغوي بعيد جداً عن المنطق والوجدان ؛ والانتقال يتم بطء كلي وعن غير قصد او تعمد . الافضل ان نقول ان الثلاثية على مر الزمن اصبحت المثل لجميع الكلمات والنزعة كانت انهُ من المستحب والشهي على السمع ان تكون جميع الكلمات على مقياس واحد وشكل لغوي واحد . واما انه كان هنالك ثلاثيات ورباعيات وخماسيات حتى في اقدم العصور فأمر لا شك فيه

﴿ الجذور الرباعية ﴾ هل هناك جذور رباعية اصلية ام الرباعية مشتقة من جذور ثنائية وثلاثية ؟ علماء اللغة العربية صرفوا النظر عن هذه المسألة واكتفوا بقولهم ان هنالك افعالاً رباعية على وزن فعلل وملحق بالرباعي واظنهم كانوا يقصدون به القلة التي تمكنوا فيها من ملاحظة الحرف الزائد وملاحظاتهم متفرقة في المعاجم وكتب اللغة ولا تفي بحاجة

وقبل الاسهاب في البحث نجد انفسنا مضطرين لنبذ اتخاذ فعلل كوزن للرباعي لما في ذلك من الاضطراب . لانهُ اذا كانت حروف فعل تمثل حروف قَتَلَ فوزن فرقع يجب ان تمثله صيغة فَرْعَل وليس فَعْلَل ، لبيان الحرف الزائد . اما فَعْلَل فيجب ان تمثل تكرار الحرف الثالث من الجذر كما في « بهور » السامية من بهر . واما اذا قلنا ان حوقل ، بذعر ، دهمس ، حصرم الخ هي على وزن فعلل فلا تكون قد أبنا الحرف الزائد ، فان حوقل تكون حفعل من وقل وبذعر بفعل من ذعر ودهمس دفعل من همس الخ وعليه سنتبع استعمال وزن فعل الجذر الاصلي ثم تمثل الحرف الزائد باضافته الى (فعل) حيث يقع بالنسبة الى ترتيب الحروف . فسنتكلم عن فرعل وفعنل الخ اي الرباعي الذي تزاد فيه الراء بعد فاء الفعل وفعنل الرباعي الذي تزاد فيه النون بعد فاء الفعل الخ

﴿ الجذور الرباعية في السامية ﴾ كثيرة جداً وتنقسم قسمين . الاول : يشمل الافعال التي لا ترد الى جذر سامي بل اكثرها مقتبس عن لغات اجنبية مثل سوكر من الايطالية zucchero وقنون من القانون[1] وقوقس من القوقس وكركن من الكركنيا وكمرك او جمرك من

(١) لفظ قانون في العربية مأخوذ عن اليونانية ، ولكن يظن ان الكلمة اليونانية ماخوذة من السامية من كلمة تفيد معنى القصبة ، ومن ثم معنى القياس

الكمرك وفودس من الفادوس ، وامثال هذه كثير نتركها جانباً لانها عارضة في اللغة . اما الذي يهمنا فهو القسم الثاني ، اي الافعال الرباعية التي تُرَدّ الى جذر ثلاثي إما عربي اصيل او بقية باقية من لغة سامية كانت محكية في القطر الذي بقيت فيه امثال كثير من الافعال الرباعية في لبنان التي لا اصل لجذرها في العربية بل يمكن بسهولة ردها الى جذر سرياني ارامي (١)

﴿ كيف يصح الجذر الثلاثي رباعيًا ﴾ او بكلام آخر كيف تنشأ الافعال الرباعية؟ يتم ذلك عن احدى طريقتين (١) التضعيف (٢) الزيادة

١ — ﴿ التضعيف ﴾ يظهر بأشكال مختلفة : ا — بتكرار الجذر الثاني جملة فيحدث وزن فَعْفَع وهذا كثير في العامية مثل دَقْدق ، بَعْبع ، حَفْحَف ، قفقف ، بَرْبَر ، مرمَر

ب — بتكرار الحرف الاول من الجذر فيحدث فَعْفَل مثل فرفك من فرك ، فرفح من فرح ، فَلْفَش من فلش وأمثالها كثير

ج — بتكرار الحرف الثاني من الجذر فيحدث فَعْلَع وهو نادر (٢)

د — بتكرار الحرف الثالث من الجذر فيحدث فَعْلَل مثل بَحْصص من البحص وفصيحها الحصب وبَهْرَر من بَهَر

ويدخل في باب التضعيف اوزان اخرى شائعة في العامية يظهر فيها التضعيف مع الزيادة وهي اربعة اوزان ، فَعْفَى ، فرفر ، فوفر ، فَيْفَع (٣)

﴿ ٢ — الزيادة ﴾ والزيادة تكون ا — سابقة (Prefix) ب — وسطية (infix) ج — لاحقة (suffix)

ا — السابقة تكون بزيادة الباء والتاء والحاء والدال والسين والشين والطاء والعين والفاف والميم والنون في اول الفعل الثلاثي فيحصل الاوزان التالية : (١) بَفْعَل (٢) تَفْعَل (٣) حَفْعَل (٤) دَفْعَل (٥) سَفْعَل (٦) شَفْعَل (٧) طَفْعَل (٨) عَفْعَل (٩) قفعل (١٠) مَفْعَل وغالباً مَمْفَعَل (١١) نَفْعَل

﴿ ب — الزيادة الوسطية ﴾ وتكون بزيادة الباء والحاء والراء والعين واللام والميم والنون والواو والياء في وسط الجذر بعد الحرف الاول فيحصل الاوزان التالية : (١) فَبْعَل

---

(١) يمكن صاحب المقال من جمع اكثر من الف فعل رباعي من لغة قرية من قرى لبنان وبعد درسها والتنقيب عن اصلها وجد ان كثيراً منها يرد الى السريانية الارامية ، وقليلا يرد الى جذر سامي له كيان اما في العبرية او الفينيقية

(٢) لا يمكن الاكتفاء من ذكر أمثلة على هذه الاوزان خوفاً من ان تكون غريبة على الاسماع لان الامثلة التي لدينا محلية ، مجموعة من لبنان ، ولكن لا شك عندنا في ان القارىء يمكن ان يجد في عاميته أمثلة على الرباعي ينطبق عليها هذا الوصف ، وربما بعد برهة قصيرة سنصدر قاموساً للعامية المحكية في لبنان يجد فيها الباحث أمثلة كثيرة على هذه الاوزان

(٢) فَحْعَل (٣) فَرْعَل وهذا شائع جداً (٤) فَمْعَل (٥) فَلْتَل (٦) فَسْعَل (٧) فَنْعَل (٨) فَوْعَل (٩) فَيْعَل والاخيران شائعان جداً مثل نوخر، روكب، فوشع، طيلع، نيزل، لَيْعَب، فَيْلَت. ويجب ان تلاحظ ان الزيادة الوسطية هذه قد تأتي بعد الحرف الثاني لاسباب صوتية لمجانسة او ملاءمة فيصح معنا بدل فَعْمَل مثلاً فَعْبَل مثل غَلْبَط اي اوقعهُ في غلط

﴿ج — اللاحقة﴾ وتكون بزيادة الباء والتاء والراء والسين والشين واللام والميم والنون والالف المقصورة في آخر الفعل فيحصل الاوزان التالية: (١) فَعْلَب (٢) فَعْلَت (٣) فَعْلَر (٤) فَعْلَس (٥) فَعْلَش (٦) فَعْلَل (٧) فَعْلَم (٨) فَعْلَن (٩) فَعْلَى

﴿احرف الزيادة﴾ وأنت اذا جمعت العناصر التي تضاف الى الجذر الثلاثي لوجدتها ب ت ح د ر س ش ط ع ق ل م ن ه و ي، وعلى الباحث اللغوي ان يجابه مشكلتين. المشكلة الاولى: «ما الدافع في اللغة الى بناء افعال رباعية؟» والمشكلة الثانية: «ما اصل هذه الزيادات وما معناها؟»

﴿الدافع الى بناء افعال رباعية﴾ قد تلمس بعض الحقيقة اذا قابلنا بين الفروق في معنى الجذر الثلاثي والوزن الرباعي المشتق منه، واذا ما ثبتنا من هذا الامر حقّ لنا ان نستنتج ما يمكن ان نسميه دافعاً

إنك اذا درست عدداً كبيراً من الرباعيات المشتقة من الثلاثيات وقابلت بين الفروق الناجمة وجدت ان هنالك دوافع ثلاثة هامة تظهر في معاني الرباعي وهي (١) الحدة في الفعل او الشدة (٢) فكرة التكرار (٣) فكرة التعدية

مثلاً فَرْفَح أحدّ من فرح، وفَلْفَش الامتعة تفيد الشدة والحدة في الفعل، ودَقْدَق تفيد تكرار العمل اكثر من دق، وطَيْلَع ونيزل للتعدية. والسؤال المنطقي الذي يتلو هذا هو: هل هذه الميزات المكتسبة في الرباعي راجعة الى الحرف او بكلام آخر، هل هذا المعنى الجديد مُضَمَّن في الحرف؟ يصعب الجواب عن هذا السؤال حتى انهُ وان سلمنا جدلاً ان للحرف معنىً مستقلاً بنفسه لا يمكن التحقق من هذا المعنى الآن لتقادم العهد لان مبادىء اللغة تعود الى ازمان بعيدة جداً وقد حاول بعض لغوي العرب (وبعضهم فرس) ان يثبتوا معانيَ للحروف[1] ولكن النتائج

(١) مراجع الفهرست لابن النديم طبعة (Flügel) ص ٣٩—٨٨ تجد ذكراً لكتب عدة كتبت في هذا الموضوع. ثم راجع ابن جني في Oscar Rescher ص ١٥ حيث يقول: وليس غرضنا في هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلفة لان ذلك يعود الى اسباب جميع اللغة وهذا مما يطول جداً وليس عليه عقدنا هذا الكتاب، وانما الغرض فيه ذكر احوال هذه الحروف منفردة او منتزعة من أبنية الكلم التي هي موضوعة فيما يخصها من القول في انفسها ... الخ

كانت محدودة . اذ يصعب جداً ان نتخيل ان اللغة بدأت بأصوات قليلة العدد . لكل صوت معنى. فاللغات في كل العالم تتألف من اصوات ابتدائية (Phonemes) لايزيد عددها على ٥٠ ولا يقل عن ١٥ وفئة كاليونانية او العربية لا يمكن ان تكون قد بدأت وتطورت عن هذه الاصوات القليلة المحدودة ، فالحرف الواحد أو قل الصوت الواحد لا يمكن ان يكون لهُ معنى خاص يستقى من هذا جزء قليل أخذ معنى خاصاً في اثناء تطور اللغة

فاذا كان من الصعب اثبات معنى لاحرف الزيادة فما هي اذاً هذه الحروف ؟ هل هي بقايا كلمات مستقلة لم يبق منها الاَّ بعض اجزائها بعد ان اندمجت في الجذر الثلاثي لتؤلف الجذر الرباعي الجديد ؟ هذا مستبعد ايضاً ، لان العربية كباقي اللغات السامية لا يعرف فيها امتزاج جذرين في كلة واحدة كما هو الحال في اللغات الآرية ولا يشترك بعض مظاهر النحت التي هي حقاً اختصارات اكثر مما هي ألفاظ منحوتة مثل بَسْمَلَ وحوقل أي قال بسم الله ولا حول ولا . . .[1] فان اللغات السامية لا تعرف النحت فما هي اذاً ؟

ان هذه الزيادات يمكن اعتبارها عناصر اشارية deictic كالتي تتألف منها الضمائر واسماء الاشارة والموصول . مما لا شك فيه ان الضمائر في السامية كما هي في باقي اللغات ، كلمات لا ترد الى جذور تتضمن فكرة اصلية كما في قتل بل تتألف من عناصر اشارية كما في أنت ، هو ، الذي ، وقد مرّت الاشارة الى هذا في اول المقال . ولا غرابة في ان اصل اقدم الكلمات في اللغة يردّ الى عناصر اشارية تنبيهية ، فالاشارة الى الشيء والتنبيه له ، والتعجب والاستغاثة والمناداة كل هذه من أقدم مظاهر اللغة على الاطلاق ولا نرى ضرورة للاسهاب في هذا الموضوع لان اصل الضمائر في اللغات السامية امر معلوم عند الاخصائيين . ولهذا الموضوع مراجع مستفيضة في اللغات الاعجمية

اما اذا حللنا الضمائر في العربية الى العناصر التي تتألف منها وجدناها : أ ت ذ ك ل م ن ه و ي ، اما احرف الزيادة التي تضاف لبناء الرباعي فهي ب ت ج د ر س ش ط ع ق ل م ن ه و ي وانت تجد ان جانباً من احرف الزيادة لا وجود لهُ في بناء الضمير مثل الطاء والعين والقاف . اما الشين وان لم نجدها في الضمير العربي فهي واحدة في ضمائر لغات اخرى سامية . اذ لا انكر ان هنالك مصاعب تاريخية وصوتية (Phonetic) يصعب تعليلها . ولكن بوجه عام يمكننا ان نقول ان القصد من هذه الزيادة هو . اولاً — لتأدية معنى المبالغة . ثانياً — لتأدية معنى الحدة والشدة . ثالثاً — لتأدية معنى التعدية . رابعاً — لاسباب صوتية بحتة

(١) راجع مثلاً للاب لويس شيخو في المشرق المجلد الاول ص ١٠٢٧ حيث ينفي وجود هذه الظاهرة في العربية

ولكن درس مسألة الاصوات في اللغة السامية لايزال في مهده ولا نعرف عن النواميس التي تتقيد بها الا القليل. خذ مثلاً وزن فرعل، فعلل، فعلل، التي هي ربما كانت عوضاً عن وزن فعّل الفصيح فبدلاً من مضاعفة الحرف الوسط يستعاض عنها بزيادة حرف كان اللسان يستسيغ او يستسهل لفظ فرفع فعّل فتسمع وتنجر على تقدير. ولكن السؤال الهام هو متى تزاد الراء او النون او اللام للاستعاضة عن التضعيف؟ هذه اسئلة لا يمكن الجواب عنها لقلة الادلة وربما عند ما تتوافر لدينا الاستنتاجات يمكن ان نقرر النواميس التي تتبع في هذه الناحية

﴿ الافعال الرباعية في الفصحى ﴾ اذا راجعنا المعاجم وجدناها طافحة بالافعال والاسماء الرباعية والخماسية والسداسية واكثرها مهمات ومعانيها غريبة عنا حتى ان الذين جمعوها ودونوها لم يكونوا على ثقة مما يدونون ، بل كتبوا ما كتبوا على ذمة الراوي او على استنتاجهم من معنى يتكرر ورد في شعر احدهم ، يدلك على ذلك المعاني الثقيلة التي تقيدها هذه المجموعة الكبيرة فانها لا تتعدى معنى «صلب ، ضخم ، شديد ، سيء الخلق ، غليظ ، طويل » الى ما هنالك من المعاني غير المحدّدة . وعدم معرفتنا معانيها بالضبط يحول دون درسها لانه اذا فقد المعنى صعب التعليل

اما في كتب الادب وفي الشعر فورودها قليل بالنسبة الى كثرتها في المعاجم . فهذا القرآن الكريم لا يحتوي على اكثر من ٥٠ كلمة رباعية . ويحق للباحث في تطور اللغة ان يسأل عن السبب في ذلك . ولنا رأي نبديه بتحفظ وقد لا نكون على صواب فانما نعتقد ان الاوزان الرباعية لا بل النزعة في اللغة السامية الى اشتقاق اوزان رباعية من جذور ثلاثية كانت في عصور قديمة شائعة جداً كما هي شائعة في بعض اللهجات العربية المحكية [1] غير انه عند ما بدأ عصر التدوين والكتابة فعل قانون الانتخاب اللغوي فعله . فالناس عند ما يتكلمون يستعملون لغة ولكن عند ما يكتبون يستعملون لغة اخرى وهذا يصدق على جميع لغات الارض . والكاتب ميال الى الابتعاد عن العامي فكل شائع معروف في نظره قريب للابتذال ، وإلا ماذا يفرق الكاتب عن بقية الناس ؟ وما الذي يفرق يوئيل التي العبراني في كتابته عن باقي الانبياء ؟ ولما كانت الافعال الرباعية واشتقاقها شائعاً عامياً ، نظراً الى ضخامتها وكثرة حروفها اخذ الكتّاب في الاقلال من استعمالها

(١) تكثر الافعال الرباعية في لهجة لبنان وسوريا ، فان كاتب المقال تمكن من جمع اكثر من الف فعل رباعي في بلدة صغيرة في لبنان واكثرها غير مذكور في معجم Dozy والف فعل في لغة مجتمع يعيش على الزراعة في الجبل عدد لا يستهان به ، وعندما يذكر الانسان ان مجموع الكلمات التي نستعملها في كلامنا العادي لا يزيد عن ٣٠٠٠ او ٤٠٠٠ يدرك معنى هذه الكثرة